عصر التنوير

«كان هناك طابع واحد للشخص المثقف في أوروبا في مجال العلم والأدب والحياة الاجتماعية منذ عهد ليبنتز Leibniz حتى آخر القرن الثامن عشر ، وكانت هناك جمعية مجهولة تنتمي إليها تلك العقول المفكرة ... هذه الجمعية المجهولة لاوجود لها إلا في المكتبات وهناك ستظل تعيش . ذكر هارناك harnack هذه العبارة في «النشرة المركزية لعلم المكتبات» .

Zentralblatt fur bibliotheksweson, XL, p, 536

وفى الحقبة المسماة بعصر التنوير تقدمت العلوم التي وضعت بذرتها في الفترة السابقة عليها بشكل ملحوظ . ووجدت رغبة ملحة في البحث والدراسة لم تعرف من قبل إلا في عصر النهضة، ولكن المفكرين لم ينظروا إلى الماضي كما كان الحال من قبل ، بل على العكس لقد كسروا كل القيود الفكرية التقليدية ، ونادوا باستقلال العقل المنظم وتحريره، واجتهد المفكرون في إيجاد تفسيرات منطقية لظواهر العلم في كل فروع المعرفة ، هذا النظام الجديد للبحث المتخصص سار جنباً إلى جنب مع المنهجية في العلوم ومع نوع جديد من التعاون الفكري العالمي المنظم . كما أنه في هذه الفترة أيضاً انشئت معظم الجمعيات العلمية[1] ، وتدين المكتبات الغربية لهذه الحقبة بطابعها الفكري الحديث .

ولنبدأ حديثنا بفرنسا ، ففي هذا العصر لم تكن فرنسا مركز الثقل السياسي والحربي فحسب ، بل تزعمت عالم الفن والأدب ، وشكلت أسلوب الحياة العامة. على الرغم من أنها لم تكن الأولى دائماً في دنيا العلوم إلا أنها كثيراً ماقدمت المصطلحات والتعبيرات المستخدمة في ذلك الوقت .

ولقد شهد النصف الثاني من القرن السابع عشر أيضاً الدراسات العملية الحقة للتاريخ في فرنسا ، وذلك عندما كان ديكارت يكوِّن مذهبه وأتباعه ، وعندما كان بايل Bayle الشكي ينشر قاموسه . وينشر Acta Sanctorum وضع الجزويت منهجاً علمياً لجمع ونقد مصادر البحث .

(١) See Martha Arn.stein =The role of scienifict Societies in the seventeenth Century. Chicago, 1928 .

كما قام بمثل هذا العمل ، ولكن بنتائج أفضل طائفة من البندكتيين في سانت مورSt. Mour وعلى رأسهم الدارس العظيم مابيون[١] .

وفي باريس في دير سانت جيرمان بري German de Pres كوّن الموريون نوعاً من الأكاديمية وأنشأوا لها مكتبة وجلبوا لها أكمل مجموعة من الكتب من الأديرة القديمة لطائفتهم . وبعد مابيون جاء منتفوكو Montfoucon الذي حاول إعداد كتالوج موحد للمخطوطات الغربية ، والذي يعتبر أباً للفهرس المشروح .

وهذه المحاولات العلمية التي قام بها الجزويت والموريون لها أهميتها الخاصة في تاريخ المكتبات في فرنسا نظراً لاشتراك الوزير العظيم كولبير Colbert فيها، وهو الذي تابع التقليد الذي بدأه مازارين محباً وجامعاً للكتب . وكان المؤرخ باليز Baluze بالنسبة له مثل نوديه بالنسبة لمازارين، فأرسل البعوث باستمرار تجوب المقاطعات لشراء المخطوطات ، وعمل بنفس الحماس بالنسبة للمكتبة الملكية التي وضعت تحت إشرافه في عام ١٦٦١ بحيث قال معاصر له أن «كولبير لم ينس شيئاً من شأنه أن يزود المكتبة ويدبجها إرضاء لشعور سيدة[٢] . ولقد كلف الدبلوماسيين الفرنسيين في الخارج بجلب الكتب للمكتبة ، كما أرسلت البعوث الخاصة إلى الشرق لهذا الغرض . ولهذا رصدت المبالغ اللازمة كما جاءتها الهدايا القيمة، وبذا تضاعف رصيد المكتبة أربع مرات عند وفاة هذا الوزير .

وإزداد الاهتمام الذي بدأه كولبير بالمكتبة بعد وفاته، فقد دعمها لويس الرابع عشر بكل الوسائل ، ولم يتوان خلفاؤه في اقتفاء أثره عند اعتلاء العرش ، بل إن البلاط بأجمعه قد ساهم بنفس الحماس في تزويد المكتبة، وكان من السهل أن يقدم الواحد منهم بعد الآخر مكتبته الخاصة الفخمة لتضم إلى رصيد المكتبة سواء بمقابل أو بدون . واستمر تكليف الدبلوماسيين الفرنسيين في الخارج بجلب الكتب لها كما ساهم الدارسون من أمثال الموريين في تزويد المكتبة فجاءها فيض هائل من المخطوطات الشرقية، خاصة من الشرق الأدنى ، بل ومن الهند والصين . وعند قيام الثورة الفرنسية كانت المكتبة الملكية تعد بحق أكبر وأغنى مجموعة من الكتب والمخطوطات في العالم .

---

(١) See, N.Berakamp - Dom Jean Mabillon and the Benedictine histerical school of Saint-Mour-Washington, 1928.

(٢) Monsieur Colbert n'oublie rien de ce qu'il fautpou. augmenter et embellir la biblio-theque ofin de contenter la genereuse in - clinat- ion de son maitre ...

وكان التنظيم الداخلي لها يتمشى دائماً مع الزيادة في مجموعاتها ، ومن بين موظفيها كليمو Clement الذي يستحق الذكر بصفة خاصة، فقد بدأ في سنة ١٦٧٥ بإعادة ترتيب المجموعات في ٢٣ قسماً ، ولهذا الغرض أتم الفهرس المصنف ، وقام بجرد المخطوطات في ذلك الوقت . وطوال تلك الفترة قدمت أسرة بجنون Pigon خدماتها الجليلة للمكتبة، ففي عهد القس جان بول أعظم فرد في هذه الأسرة أضيفت أجنحة جديدة للمكتبة وذلك في عام ١٧٢٤ ، وفي العقد الذي تلى بدأ طبع الفهارس ، ولكنها مع ذلك لم تكتمل ، وفي نهاية الفترة المدروسة بلغ عدد موظفي المكتبة مالايقل عن ٥٤ موظفاً ، وأن المستوى العالي الذي كانوا يؤدون به واجباتهم يمكن استقاؤه من المحاضرة التي ألقاها القس كوتون دي هوساي Cotton des Haussayes في السوربون عام ١٨٧٠ تحت عنوان «واجبات ومؤهلات أمين المكتبة»[١] .

ولقد وجدنا في الفصل السابق بعض الإشارات المتفرقة عن التصنيف والفهرسة ، وهما العمليتان اللتان كرس عصر التنوير قوته لهما وخاصة في فرنسا ، بالذات ، فقد أثر تقسيم بيكون للمعرفة البشرية على المفكرين تأثيراً كبيراً[٢] وغرس الاعتقاد بإمكانية التصنيف الدقيق للمعرفة ، فتوالت النظم نظاماً بعد آخر وكان لقلة منها أهمية، إلا أن هذه النظم المقترحة جميعاً لم تطبق عملياً ، وظل المكتبيون يستخدمون في تصنيفهم الأقسام الخمسة السائدة في فرنسا (اللاهوت ، القانون ، الفنون والعلوم ، الآداب ، التاريخ) وهذا التقسيم من وضع كليمو – سالف الذكر – نقلاً عن مارتن تاجر الكتب الباريسي ، فقد رفع كتاب الموسوعات من قدر نظام تجار الكتب في باريس الذي وضعه مارتن هذا .

وفي البداية كان ارتياد العامة للمكتبة مغلفاً بالمصاعب ، وكان القس بجنون – سالف الذكر – أول من وضع القواعد لتسهيل استعمال المكتبة للعامة . وبهذه الطريقة كان بمقدور أعلام عصر التنوير استخدام المكتبة الملكية ، بل وأكثر من هذا اعترفت الجمعية الوطنية في ١٧٩٠ بأهمية المكتبة في الحياة العلمية، ولم تنقطع صلاتها بالدراسات التاريخية على الإطلاق ، وأنشىء بها قسم خاص للأنساب هدف إلى دراسة أسرة النبالة في التاريخ ، وأعمق من هذا

---

(١) De Devoirs et des qualitès du bibliothècairè The English translation Chicago, (1950). وبه مقدمة ببليوجرافية مختصرة.

(٢) Portitio universalis doctrinae humanae .

ولعله من الممتع أن نشير إلى أنه بعد حرب ١٨١٢ وبعد إعادة بناء مكتبة الكونجرس بناء على مجموعة جيفرسون الخاصة فقد استخدم في تصنيفها نظام بناء جيفرسون على تعديل لنظام بيكون .

ألحقت بها خزانة الوثائق Cabinet des chartes[٢] وهي التي لعب الموريون في إنشائها دوراً أساسياً .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإننا نحيد عن الصواب اذ خلعنا على المكتبة صبغة علمية خالصة فقد كانت فكرة أن المكتبة دليل على الفخامة والأبهة ، ومكان للاستعراض لم تزل مسيطرة عليها ، فعند الشراء للمكتبة او الاختيار من الهدايا التي تقدم لها كان يراعى دائماً تفضيل الأشياء النادرة والثمينة بصرف النظر عن المحتوى الموضوعي لها ، والدليل على هذا أيضاً أنه كان بالمكتبة قسمان للكتب المطبوعة والميداليات أنفق عليها الملكيون بسخاء منقطع النظير .

أما في إنجلترا فإن الأمور كانت على نقيض ذلك تماماً ، فإن بعض الأفكار التي تميزت بها الفترة التي سبقت كانت ماتزال مسيطرة على عقول الذين وضعوا معايير المكتبات. ولم يحدث التُقدم بنفس الطريقة التي حدث بها على الضفة الثانية من القنال . ففي فرنسا كان شخص الملك هو المحور الذي تركزت حوله كل الجهود التي بذلت لتطوير المكتبات . أما في إنجلترا فقد كانت الأمةكلها ممثلة في البرلمان . في فرنسا -كما رأينا - نبع الدافع إلى التطوير من جانب المؤرخين أما في إنجلترا فقد جاء من جانب الفلاسفة الطبيعيين . ولم تلعب المكتبة البودلية في حركة التطوير دوراً ذا بال . وليكن معلوماً لدينا أنها أهملت تماماً بعد بدايتها الرائعة : حقاً لقد اكتنزت بالهبات ، ولكن في عصر التنوير لم تعد الجامعات هي مركز الحياة العلمية في إنجلترا بل كانت مدينة لندن العاصمة وحدها الجديرة بتسليط الأضواء عليها .

ولقد ولدت فكرة إنشاء مكتبة كبيرة في لندن عدة مرات خلال القرن السادس عشر ، وفي منتصف القرن السابع عشر أثناء الاضطرابات إبان الثورة كان جون ديري john Dury أمين مكتبة الملك الخاصة غارقاً حتى أذنيه في مشاكلها . ونشر هذا المفكر الأصيل في سنة ١٦٥٠ كتاب أمين المكتبة المهذب The Reformed Library keeper ، ووصفه بأنه عامل مساعد على التعليم وعرض بعض وجهات النظر بدت قريبة الشبه بما تقوم به المكتبات العامة حالياً . وإن فكرة - وإن لم يلمسها ديري من قريب - تطوير المكتبة الملكية إلى مكتبة عامة نادى بها ريتشارد بنتلي Richard Bentley الذي كان مديراً لهذه المكتبة في نهاية القرن ، فقد كتب «اقتراحاً لبناء مكتبة ملكية وتأسيسها بقرار برلماني» كما طالب بمربوط سنوي من المال - كبير في الواقع - يخصص لرفع مجموعة المكتبة إلى ٢٠٠ر٠٠٠ مجلد ، ولكن هذه الاقتراحات لم يأخذ جزء منها

(٢) انظر Henri Omont = La collection Moreau - Paris, 1891 ويقال إنها بنيت أساساً على مجموعة من الوثائق التاريخية والأرشيفية قدمها المحامي الباريسي مورو .

سبيله إلى التنفيذ إلا بعد جيل على يد الطبيب سير هانزسلون Hans Sloone الطبيب الخاص للملك .

خلف سلون نيوتن في رئاسة الجمعية الملكية، وقد وصفه شاعر هجائي بأنه «أول زمانه» جمع كل شيء «نادر وغريب» ولكنه في الوقت نفسه يهدف إلى «توسيع معرفتنا في مجال الطبيعة» وهكذا جمع الحيوانات النادرة والنباتات والمعادن بالإضافة إلى الآثار ومجموعة ضخمة من الكتب والمخطوطات وأوقفها لصالح الأمة مقابل مبالغ من المال تدفع للورثة . وفي سنة ١٧٥٣ قبل البرلمان هذا العطاء ، وأضيفت إلى هذه المجموعة مجموعتان أخريان : المكتبة الكوتونية والمكتبة الهارلية فقد كان سير روبرت بروز كوتون Robert Bruce Cotton قد جمع مجموعة قيمة من المواد عن التاريخ الإنجليزي وقام حفيده روبرت بإهدائها إلى الأمة في سنة ١٧٠٠ ، ولكن النيران دمرتها بعد هذا التاريخ بقليل . وكانت مجموعات روبرت هارلي R.Harley (توفي سنة ١٧٢٤م) قد بيعت ، ولكن البرلمان استرد المخطوطات، وأخيراً أضيفت إلى هذه المجموعات مكتبة جورج الثاني الخاصة. والمجموعة الملكية هذه لها تاريخها منذ بدايتها في العصور الوسطى وزيادتها الهائلة على يد محب الكتب هنري السابع وخسارتها في فترة الاضطرابات الدينية[1] . وكم بذل الأمير هنري ابن جيمس الأول جهده في إنمائها واستفادت كثيراً منذ سنة ١٦٦٢ من قانون حق الطبع الذي يطبق حتى الآن لصالح المكتبة القومية .

واتخذ المتحف البريطاني – هكذا أصبح اسمه – مقراً جديداً في مونتاجو هوس Montagu House وافتتح للناس في سنة ١٧٥٩ وسمحت القوانين « بالدخول المجاني لكل راغب في الدرس والاطلاع » وفي الحقيقة كان الدخول إلى المكتبة مغلفاً بنوع خاص من صعوبة الرسميات . وعلى العموم فالمتحف البريطاني – كما يبدو من اسمه – لم يكن مكاناً للدرس بقدر ما كان مكاناً للعرض، ذلك لأن مجموعته في التاريخ الطبيعي مازالت تكون الجزء الرئيسي من مقتنياته . يفسر ذلك إن الأمناء الثلاثة الأول الرئيسيين بالمتحف كانوا من علماء الطبيعة وأعضاء في الجمعية الملكية .

وعلى الرغم من أن إيطاليا في العصر السابق كانت تقف في المقدمة على قدم المساواة مع كل من فرنسا وإنجلترا في شؤون المكتبات إلا أنها منذ منتصف القرن السابع عشر أخذت في التأخر في هذا المجال على الرغم من أنها لم تفتقر يوماً إلى الحركات الثقافية التي تؤثر في تطور المكتبات .

(١) لقد خربت مجموعة ضخمة ليس فقط من الصور الدينية بل أيضاً من الكتب في القرن السابع عشر بانجلترا انظر :
C.R.Gillet Burned books. New York, 1932.

لقد كان في إيطاليا موراتوري Muratori الذي كان يعمل في المكتبة الأميروزية ، وبعد سنة ١٧٠٠ اشتغل مكتبياً وأرشيفيا لدى أسرة است في مودينا ,Modena وقد أدخل طرق الموريين الدراسية إلى شبه جزيرة إيطاليا ، وبهذا أنشأ مدرسة التاريخ والآثار التي قامت وحدها بمعظم الدراسات في مختلف الميادين طوال القرن الثامن عشر ، وكان ثمة عضو آخر في هذه المدرسة مثل اتجاه موراتوري والموريين ألا وهو ماجليابتشي Magliabechi أمين مكتبة البلاط التوسكاني، وكان حاد الطبع قبيح الشكل موضع سخرية الناس، ولكنه مع ذلك استطاع أن ينال شهرة عالمية، وأن يراسل الثقاة من العلماء في ذلك الزمان، فقد تملكه حقاً جنون حب الكتب، فكانت الكتب في منزله، في أكوام تبلغ السقف ، وكان يصل إلى مايريده بهدى من ذاكرته القوية، لقد سماه مابيون «متحفاً متنقلاً ، ومكتبة زاخرة بالحياة» museum inambulam et viva quaedam bibiotheca. وعند موته في سنة ١٧١٤ أهدى مكتبته إلى الدوق العظيم، وبها وضع الأساس للمكتبة القومية bibioteca nazional في فلورنسا والتي مازالت إلى اليوم[١] .

ومن المكتبات الإيطالية التي أنشئت آنذاك مكتبتان تستحقان الذكر : مكتبة الكاردينال كازانات casanate في روما ، وكان صديقاً لمابيون وباليز ، ومكتبة بريرا Brera في ميلانو التي أنشئت في كنف الإمبراطورة ماريا تريزا maria theresa سنة ١٧٧٠ ، وتمثلت فيها روح عصر التنوير . ولقد تم في تلك الفترة أيضاً مشروعان في منتهى الأهمية والابتكار ممثلين في فهرس مخطوطات مكتبة لاورنت الذي قام به باندیني في فلورنسا ، وفهرس كتب مكتبة كازانات المذكورة، والذي قام به أوديفردي Audifredi .

وإذا ولينا وجهنا شطر ألمانيا فسوف نعالج الأمور بتفصيل أكثر من البلاد السابقة. وهذا الإتجاه إنما يمليه عاملان : الأول يتمشى مع خطة الكتاب التي تقضي باختبار ألصق بالمكتبات الألمانية أكثر من المكتبات الأخرى ، والثاني أن حالة المكتبات الألمانية نفسها تستدعي هذا التفصيل . فإنه ابتداء من سنة ١٦٥٠ ومنذ أن أخذت جروح حرب الثلاثين عاماً تلتئم ، شاركت ألمانيا بدور فعال في الحركات الثقافية الغربية . ونتيجة لذلك فقد بلغت بعض المكتبات درجة عظيمة من التقدم تليق بأمة عريقة فيها ثقافة ، بحيث تفوقت على المكتبات في فرنسا في نهاية الفترة التي ندرسها .

ولقد وصلنا تقرير ان عن المكتبات الألمانية : يأتي في الدرجة الأولى من الأهمية تقرير أوفنباخ uffenbach ثم تقرير هيرشينج ,hirshing ويرجعان إلى نهاية القرن الثامن عشر، وكلا

(١) Cf. W.E. Axon = "An italion Librarian of the xviiond XViii Centuries Antonio Maglia bech" library association record V, 1903. 39-67.

التقريرين يرسم صورة حية لما وصلت إليه غالبية المكتبات التي تخدم الجمهور من سوء : من مكان ضيق «وتصنيف ضعيف و فهارس ناقصة، واستعمال سيىء . ولكن هذا الوصف مبتور ولايخلو من تحامل . ورغم ذلك فإنه يصدق على معظم المكتبات التي وجدت حينذاك .

لقد اقتصر وجود مكتبات الكنائس على المدن الكبرى . وأهملت مكتبات المؤسسات الدينية والأديرة إهمالاً تاماً ، وساد الاتجاه في عصر التنوير هذا إلى التخلص من مخطوطات الرقوق عن طريق البيع، فقد عرضت ، على سبيل المثال ذخائر دير ويزنبرج لبيعها إلى الصاغة لولا أن تدخل بعض ذوي الرأي وحالوا دون بيعها، واحتفظوا بها في ولفنبرج . إلا أن هذه الصورة القائمة لم تكن هي السائدة في كل مكان، فقد كانت هناك سلسلة كاملة من الأديرة الفرنجية والبافارية تحتفظ كل منها بمجموعات من الكتب القيمة أعيد تصنيفها ورصدت المبالغ اللازمة لتنميتها. كما أنها لم تفتقر إلى مبان جديدة فخمة، وإني لأذكر مبنى الركوك Rococo الجميل في أمورباخ مثالاً صادقاً على ماأقول . وفي دير سانت بالاسين Blasien في الغابة السوداء جد نوع من النشاط الثقافي، تحت تأثير الموريين . بلغ قمته في عهد القس جربرت Gerbert قبل الثورة .

أما مكتبات البلديات فقد بلغ معظمها درجة من السوء لايمكن تصورها، ولم يبق على حاله السابق غير قلة قليلة منها، فتقدم المكتبات لم يوجد إلا في قلة من المدن الكبرى ، ففي فرانكفورت ومين أدمجت المجموعات التي وجدت مستقلة في ذلك الوقت لتكون مكتبة عامة عام ١٦٦٨ ، كما وجدت بعد هذا التاريخ وظيفة أمين مكتبة . وفي ليزج أنشئت مكتبة بلدية كان أصلها مكتبة خاصة ثم نمت وتطورت . والشيء الفذ هو إنشاء مكتبة هامبوجغ التجارية ham-burger kommerz bibliothek في عام ١٧٣٥ ، ويرجع فضل إنشائها إلى طبقة التجار الذين جمعوا كتباً معظمها يعالج التجارة وشؤون الشحن والتفريغ بالإضافة إلى كتب تعالج مسائل محلية تتعلق بمدينة هامبورج .

على أن الذي يدعو إلى العزاء والحالة هذه هي ظاهرة إحياء وبعث المكتبات الخاصة، ففي هذه الناحية كان التئام الجروح التي سببتها الحرب الشريرة أسرع . وإقامة هذا النوع من المكتبات إنما يعكس الروح العامة في ذلك العصر ، وتتضح أهمية هذه المكتبات بصورة جلية من تقرير أوفنباخ ، كذلك يشير هيرشنخ إلى أنها قد زادت كثيراً كماً وكيفاً . فإلى جانب المكتبات الخاصة في درسدن وهامبروج وڤيينا، وجد في برلين ونورمبرج أكبر عدد من المكتبات الخاصة. وهذه المكتبات الخاصة وإن لم يضخم عدد الكتب في كل منها إلا أن قيمتها العلمية والدراسية

فاقت حدود التصور ، فالكتب العلمية وشبه العلمية كانت تشكل الجزء الأعظم من هذه المجموعات ، وعلى العكس من ذلك كانت كتب الأدب قلة . أما مكتبات بلاط الأمراء فقد استمرت يغلب عليها صفة المزج بين حجرة العرض وحجرة الدراسة كما وجدنا في الفترة السابقة .

لقد تطورت مكتبة البلاط في فيينا لتضم أفخم مجموعة من الكتب والأشياء النادرة في أوروبا . وقد أخذ شأنها يعلو منذ دعي إليها لامبيك Lambeck – مواطن من هامبورج ، الذي سافر كثيراً وعقد الصلات مع الهيئات العلمية الدولية، وارتفع قدره كعالم كبير . لقد عمل في فيينا من سنة ١٦٦٣ – ١٦٨٠ . هذا وإن وصفه للمخطوطات التي وضعها في «كتاب التعليقات Commentari قد بلغ درجة متناهية من الدقة جعلته يقف على قدم المساواة مع الفهرس المشروح catalogue raisonne الذي وضعه مونتفاكون الفرنسي وإن اقتناء الكتب والمخطوطات الذي بدأ بصورة كبيرة في منتصف القرن السابع عشر قد بلغ صورة أكبر فى القرن الثامن عشر في حكم الإمبراطور شارل السادس ، ففي ذلك الوقت أضيفت إلى المكتبة مجموعات يوجين Eu-gene أمير سافوي مما حدا إلى إضافة أجنحة جديدة للمكتبة قام بها ماسترفيشرفون إيرلاخ . M.F. von erlach.

أما مكتبة برلين التي أنشأها الأمير المنتخب العظيم، فقد كانت لها طفراتها وكبواتها، ففي حكم خلفائه المباشرين نمت المجموعة واكتنزت في الشرقيات خاصة. وفي سنة ١٦٩٩، جرياً على ماهو معمول به في فرنسا ، طبق نظام الإيداع القانوني لصالحها، وصادفت أيام نحسها حكم الملك العسكري فردريك وليام الذي قطع راتب موظفيها وحول جزءاً من مخصصاتها المالية إلى قواده العسكريين وكان موجود الكتب مهدداً بتوزيعه على المؤسسات الأخرى ، حتى فردريك العظيم الذي كانت له صلة يومية بالكتب ، والذي أنشأ مكتبات عدة في مختلف قلاعه، والذي كانت تصحبه مكتبة متنقلة في أسفاره حتى هو لم يبد إلا القليل جداً من الاهتمام بالمكتبة الملكية لفترة طويلة، ولم يتغير اتجاهه إليها إلا منذ سنة ١٧٧٠، فخصص مبالغ كبيرة من المال لشراء الكتب لها حتى قفز عدد المجلدات بها في فترة وجيزة إلى ١٥٠٫٠٠٠ مجلد، ولضيق المكان أقيم بناء جديد لها عرف بالكومود ,kommode وعلى الرغم من ذلك فالتنظيم الداخلي لم يتحسن، وذلك لقصور في عدد الموظفين اللازمين لإدارة المكتبة .

لقد كان شارل يوجين charls Eugene من فيرتمبرج أحد المعجبين بفردريك العظيم، وأحد

---

(١) أسست في سنة ١٧٧٠، كأكاديمية عسكرية في بداية الأمر ، ثم تحولت إلى جامعة عامة . وفي سنة ١٧٩٤ حلت على يد الدوق لويس يوجين من فيرتمبرغ .

المتطرفين لفلسفة الاستبدادية . وبالإضافة إلى مكتبة كالزكوك Karlsschule[1] أقام مكتبة عامة بلغ موجود الكتب بها بفضل كده في جمع الكتب لها مايقرب من ١٠٠ر٠٠٠ عند وفاته في سنة ١٧٩٣، لقد كان الدوق يقوم بنفسه بإصدار القرارات ويباشر جميع الأعمال في المكتبة مباشرته للسلطة السياسية في مقاطعته، وبالطبع كان يركز اهتمامه على الكتب النادرة وخاصة مجموعته من الأناجيل، والحادثة التالية تصور مبلغ اهتمام أمراء تلك الفترة بكتبهم النادرة، فحينما طلب الأستاذ مايكلز Micaelis من جوتنجن السماح له باستعمال إنجيل عبري من مكتبة كاسل في سنة ١٧٦٧ أذن له اللاندجراف، ولكنه أوصل المخطوطات في جوتنجن في حماية كوكبة من الفرسان.

كما لايفوتنا أن نذكر كلمة عن مكتبة سانت بيترسبورج st. petersburg فلكي يرتفع بالثقافة الروسية إلى المستوى الذي بلغته في الغرب فكر بيتر العظيم peter the Great في إنشاء مكتبة تؤدي ذلك الغرض . ولكن من قام على تنفيذ هذه الفكرة إنما كانت كاترين الثانية catherine II التي كانت معجبة بفولتير . وكانت نواتها مجموعة وارسو التي كانت تملكها أسرة زالوسكي Za-luski وكان نبلاء بولندا قد قاموا على خدمة شعبهم وتنويره عن طريق إحياء العلوم والآداب ، وجمعوا مكتبة تربو على ١٠٠ر٠٠٠ مجلد ، وسمحوا باستعمال العامة لها في سنة ١٧٤٨ ، ولكنها لم تلبث أن أصابها الإهمال إلى أن نقلت إلى سانت بيتر سبورج كغنيمة حرب ، ومن بين المجموعات التي أضيفت إلى هذه المكتبة مؤخراً مجموعة دبروفسكي Dubrovsky موظف السفارة الروسية في باريس ، والذي قام بجمع أحسن المؤلفات من الأديرة الفرنسية إبان الثورة، ومنها المخطوطات القيمة التي وجدت في كوربي . وفي خلال القرن التاسع عشر كانت مكتبة سانت بيترسبورج تنمو وتزداد بنفس الطريقة ، وكانت دائماً تحرز أحسن النتائج إلى أن أصبحت اليوم واحدة من أغنى وأفخم مكتبات العالم[1] .

ومن المآخذ التي أخذها أوفنباخ على المكتبات الألمانية قصور كفاءة الموظفين بها فقد وصفهم : بالجهل ، وقلة الأدب ، والتحاسد ، والكسل ، وقد أيده في ذلك تشخيص هيرشنج ، فقد ذكرهم بقلة أو انعدام خبرتهم بالكتب ، وأنهم جهله نافرون يعادون الناس ، ينظرون إلى وظائفهم على أنها (سنقور) Sinecur[2] ويبدو لي حقيقة أن المعلقين لم يظلما الموظفين في تقريرهما هذا، فإن ليسنج Lessing نفسه حين استدعي إلى مكتبة وولفنبوتل في سنة ١٧٧٠

(١) كانت الثورة الشيوعية ذات أثر فعال في هذا المجال وبالنسبة لجميع المكتبات الروسية انظر الفصل التاسع.

(٢) وظيفة دينية بمرتب دون عمل حقيقي في مقابله (المترجم) .

ليتولى أمانتها وطن نفسه على أن يستخدم المكتبة ويفيد منها أكثر بكثير من استفادتها منه، ونتيجة لذلك أهمل عمله كلية مما أدى إلى فوضى شاملة .

وعلى الرغم من هذا فواجبنا أن نؤكد أنه لم يكن كل المكتبيين على شاكلة ليسنج هذا، فإن هذه الإنتقادات المرة التي علت إنما تشير إلى وجود فئة أخرى مخالفة. ففي نفس البقعة التي قضى فيها ليسنج أيامه الأخيرة عاش الرجل الذي ينظر إليه على أنه قائد عصر التنوير في ألمانيا، الرجل الذي وضع المبادىء الممتازة التي تبنى عليها واجبات أمين المكتبة، وذلك الرجل هو جو تفريد ويلهلم ليبنز Gottfried Leibniz .

فقد أعجب ليبنز في طفولته بمكتبة أبيه، فلما كبر اشتغل أمين مكتبة عند محب الكتب فون بوينبرج von boinburg من ماينز، وخطط لأول مرة لمشروعه الببليوجرافي ، على شكل مجلة العلماء journal des savants الذي هدف إلى تجميع مختار نصف سنوي للكتب Nucleus librarius ، ثم تجميع هذه الإصدارات نصف السنوية بحيث تصبح حصراً للمعرفة الإنسانية الموجودة في الكتب . وكان يعتقد أن تقدم المعرفة البشرية ممكن لو أن كل باحث تمكن من مطالعة جميع المؤلفات السابقة .

وكانت إقامة ليبنز في باريس ذات أثر قوي عليه وخاصة أنها عاصرت النهضة الكبيرة التي تواجدت في المكتبة الملكية في عهد كولبير، ووطد صداقته بكل من كليمو وبالين ، وقرأ كثيراً عن الشئون المكتبية، ومن بين ماقرأ مشروع نوديه، ومنذ هذا التاريخ أيضاً توطدت صلات ليبنز بالمثقفين من الجزويت والموريين . وبدراساته التاريخية افتتح عهداً جديداً في الدراسات التاريخية الألمانية ، وأن إدراكه العميق لأهمية مكتبات البحث كان نتيجة حتمية لهذه الدراسات .

وفي سنة ١٦٧٦ استدعي ليبنز إلى هانوفر Rococo ليعمل أميناً لمكتبتها ومؤرخاً في نفس الوقت، وبعد هذا التاريخ بخمسة عشر عاماً تولى إدارة مكتبة وولفنبوتل ، وتدين له المكتبات في نمو مجموعة الكتب بها ، وتدين له وولفنبوتل بالذات في إنشاء فهرس هجائي لها، وإقامة مبنى بيضاوى الشكل ذو قبة بها مسقط النور، وقد أثار موجة من الدهشة والإعجاب . وفي الحق يستحق ليبنز مكان الصدارة في تاريخ المكتبات ليس فقط بسبب الإنجازات التي قام بها بل أيضاً لمبادئه وأفكاره ومشروعاته التي تضمنتها مراسلاته واقتراحاته العديدة للأمراء الجلفين Guelphs .

إن المكتبة المثالية في نظر ليبنز هي مجموعة متكاملة أحسنت إدارتها وخدمتها ، ولقد كان يكد في استخدام الاستعارات وصور المجاز ليوضح أهميتها إذ قارن المكتبة بخلاصة من

الرجال تجمعوا من كل العصور والأجناس ليوصلوا إلينا زبدة أفكارهم . وإن مكتبة كهذه تؤدي للدولة والمجتمع نفس الوظائف التي تؤديها الكنيسة والمدرسة . لقد كان يقيس قيمة المكتبة ليس بعدد ماتضمه من كتب ، بل بنوع هذه الكتب وماتحويه من معلومات ، ولم يكن ليهتم في هذا الصدد بالنادر من الكتب، بل بأمهات المؤلفات التي اسدت ركناً في عالم المعرفة . وإن مؤلفات صغيرة تشبع رغبة القارىء خير من مجلدات ضخمة خالية من الفحوى . ولقد علق أهمية كبيرة على انتظام تزويد المكتبة بالدوريات والكتب الجديدة، وأن أى إهمال في هذه الناحية يمكن أن يؤدي إلى انحلال المجموعة كلها ، ولن يتأتى هذا إلا بتخصيص مخصصات سنوية كافية للمكتبة . ولهذا كان ليبنز يلاحق الأمراء الجلفيين بطلباته من المال كما كان يبتكر مختلف الوسائل لإيجاد مصادر جديدة للدخل . وفي حله لمشاكل الفهرسة والتصنيف تجلت فراسته وقوة إدراكه العملية، وكان يفضل مثل الفرنسيين التصنيف العملي المحدد «التصنيف الدقيق الذي يتدرج من الكليات إلى الجزئيات» . كما كان يفضل الفهارس الهجائية كما أعرب عن رغبته في فهرس يرتب المقتنيات حسب تواريخ النشر ، كما كان يوصى دائماً بالكشافات الموضوعية indices materiarum التي ترتب بالكلمات الدالة catch words .

إننا نصادف كثيراً من آراء ليبنز في مشروع نوديه ومؤلفات ديري وبنتلي ، ولكن هذا لايقلل من خطورة رأيه الذي يكشف عن أهمية مكتبات البحث والمراجع الكبيرة وطرق الاستفادة منها وتطويرها[1] . وكم يكون جميلاً لو تتبعنا الأثر الذي تركه ليبنز في معاصريه والأجيال اللاحقة، وهنا يمكننا فقط أن نكشف عن أثره في مواضع قليلة .

فمن المرجح أنه بناء على توصيات ليبنز بالتعاون في مجال الفهرسة والتزويد أرسلت هذه المقترحات من هانوفر إلى هيلمزدت ، إلا أن عدم كفاءة الأمين القائم على المكتبة هناك جعلته لايقبل التعاون ، وفي سنة ١٧٢٤ م انتقل تلميذه إيكهارت Eckhart إلى وير برج wursburg ، وقام على فهرسة وتصنيف مجموعات الجامعة الفرنجية، فأظهر ابتكاراً ونبوغاً ، كما وضع لها ميزانية منتظمة ولائحة مرنة للاستعمال .

إلا أنه ليس من السهل علينا إدراك الطريقة التي نفذت بها آراء ليبنز إلى عاصمة ساكسونيا ، وسبق أن ذكرنا أن درسدن كانت مكتنزة بالمكتبات الخاصة، فقد كان جمع الكتب هواية في ذلك الوقت خاصة بين الطبقات الراقية وإن المثل الأعلى لذلك كان هو الكونت بروهل

---

(١) لمعلومات أكثر تفصيلاً أنظر :

A.L. Clarke = "Leibnitz as a librarian" The Library III, Ser.5,1914 140 - 154.

Bruhl الذي جمع عدداً من المجلدات القيمة يربو عددها على ٦٢ر٠٠٠ مجلد «وكان من بين خصومه السياسيين ومحبي الكتب الكونت بوناو Bunau الذي كان على النقيض من بروهل ينبع حبه للكتب عن رغبة حقيقية في البحث والاطلاع لاعن رغبة في المفاخرة والمباهاة «فكان يقضي ساعات فراغه في تتبع ممتع للدراسات التاريخية على طريقة ليبنز والموريين ، ولقد قوبل تاريخه العظيم الذي كتبه عن الإمبراطورية الألمانية وأباطرتها بحماس بالغ وأكسبه تقديراً عظيماً في كل ألمانيا . ودارت مجموعة كتبه حول الدراسات التاريخية ، وكانت قيمتها عظيمة على الرغم من أنها تأتي في المرتبة الثانية لمجموعة بروهل من حيث الحجم .

وابتداء من عام ١٧٤٠ فصاعداً أخذ فرانكي Franke الذي كان في خدمه الكونت بناء على أمر وتوجيه من سيده ، في نشر فهرس لمكتبه بوناو هذا تحت عنوان فهرس مكتبة بوناو Catalo-gus Bibliothecae Bunavianae ، وعلى الرغم من أن هذا العمل لم يكتمل إلا أنه نال التقدير خارج الحدود الألمانية ، وذلك لتفريعاته الأصلية التي وضعت طبقاً لأسس تاريخية وجغرافية . وفي الستينات حينما أدمجت مجموعات بوناو وبروهل في مكتبة البلاط بدرسدن جند فرانكي نفسه لخدمتها . فقام بإعادة تصنيفها طبقاً لأسس كان اختبرها في عهد بوناو . ثم واصل المؤرخ أديلونج Adlunge عمل فرانكي . وفي ذلك الوقت نقلت المكتبة إلى مقر جديد في القصر الياباني Japanese palace واكتملت الفهارس الناقصة في ذلك الوقت كما رصدت لها المبالغ اللازمة لشراء الكتب .

وعلى الرغم من أن مكتبة درسدن في نهاية القرن الثامن عشر كانت تعتبر من أهم المكتبات الألمانية ، فإن مكتبة جامعة جوتنجن قد تفوقت عليها ليس فقط لأنها نفذت البرنامج الكامل الذي وضعه ليبنز، ولكن أيضاً في مدى مطابقتها وتمشيها مع أغراض الجامعة التى أنشئت على أسس حديثة ، ويرجع الفضل في ذلك إلى البارون فون ميونخهوزن von munchhousen أول وكيل لجامعة جوتنجن الذي قدر منذ البداية مايمكن أن تحدثه تحقيق ذاتية وشخصية الجامعة عن طريق مكتبتها الخاصة .

وإن نظرة واحدة إلى مكتبات الجامعات الأخرى في ألمانيا لتكشف عن الوضع الذي تميزت به جامعة جوتنجن في ذلك الوقت وحسبما ورد في تقرير هيرشنج فإن الحال كان مرضياً ، أو على الأقل مقبولاً في قلة من الجامعات ، وفي الغالبية العظمى كان الحال سيئاً أحياناً أو دائماً ففي إحداها لم يكن يمكن الوصول إلى الكتب لأن الأمين كان خارج المدينة ، أو لأن مرضه أدى إلى إغلاق المكتبة طوال الشتاء، وفي أخرى كانت حجرات المكتبة معتمة ونوافذها مكسرة

ومغطاة بخيوط العنكبوت ومملوءة بالسناج والعفن ، وفي ثالثة وضعت الكتب على رفوف عالية تحتاج في إحضارها إلى بهلوان ماهر أو سقاف حاذق ففي هالي نفسها حيث ساد المذهب العقلي الألماني كانت الأحوال محزنة حتى بعد منتصف القرن الثامن عشر ، أساساً لأن الدراسات الفيلولوجية والتاريخية قد توقفت تماماً ، بينما سارت هذه الدراسات في جوتنجن بمنتهى النشاط والقوة .

وظل فون ميونخهوزن حتى وفاته سنة ١٧٧٠ يقوم بنفسه على شراء الكتب ورتب من يمثله في المزادات الهامة، ونظم عمله مع تجار الكتب المحليين والأجانب . وكانت رغبات أساتذة الجامعة تحترم إلى أبعد الحدود ، وبالإضافة إلى ذلك كان فون ميونخهوزن يعرف كيف يقنع الناس بتقديم الهدايا إلى مكتبة الجامعة. كل هذه النشاطات الخلاقة إنما ترتبت على المبادىء التي وضعها ليبنز ، فكانت المجموعات تنمو وتزداد في كل فرع من فروع المعرفة ، وكانت الكتب التي ترد أثناء العام الدراسي توضع تحت تصرف نقاد الكتب من نشرة جوتنجن المسماة Got-tinger Gelherte Anzeigen ، فقد كان من أهداف فون مينخوزن خلق التعاون الوثيق بين المكتبة وبين مطبوع الجامعة هذا الذي سرعان ما اشتهر وقدرته الأوساط العلمية في كل أنحاء العالم .

لقد كان المدير الحقيقي للمكتبة هو البروفسور جزنر، وعنه يقول كاتب ترجمته «لقد كان الأول بين المكتبيين ليس فقط في علمه وسعة أفقه ، بل أيضاً في دماثة خلقه وبشاشته التي يقابل بها الزائرين[1] وفي واحد من تقاريره يطالب جرنر أمين المكتبة بألا يكون كالمول ، يجمع الكتب فحسب بل عليه أن يشرك في ثروته الثمينة هذه أكبر عدد من الناس ، وإنه لينظر إليه على أنه أحد مؤسسي فيلولوجيا الإنسانيين الجديدة وخلفه في رئاستها هين Heyne الذي كان يشغل منصباً فى مكتبة الوكنت بروهل سابقة الذكر ، وفي سنة ١٧٦٣ وكان قد وطد صلته مع ونكلمان winchelmann وفي جوتنجن نظم المكتبة على أوسع نطاق وتمكن بفضل ذهنه المتوقد من أن يجد حلاً عملياً لكل مشكلة صادفته . لقد جمع في شخصه بين كل من فون ميونخهوزن وجزنر بل وأكثر من هذا أضاف أشياء جديدة . وإن مجموعة الستين ألف مجلد التي تسلم الأشراف عليها ولم يمض عليها عشرون عاماً تضاعف حجمها ولم ينقض القرن إلا وبلغت مائتي ألف .

لقد كانت المكتبة في البداية تحتل إحدى قاعات المحاضرات فلم تلبث أن احتلت مبنى المحاضرات كله ، وأضيف إليه جناح آخر دعت إلى إنشائه الزيادة الهائلة في المجموعات.

---

non modo scientia bibiothecariorum omnium long princeps erat, sed etiam elegentissima, humanitate et exprompta adversus facilitate. J. V Ernesti = humanti = Narration se lonne Matthia Gasnero ... Leipzig, 1826, 30.

لقد استخدم في تصنيف الكتب بها تصنيفا علمياً عملياً محدداً حسب توصيات ليبنز ، أما نظام الفهرسة فكان فجاً في البداية ولم يتعد مرحلة البداية وكانت هناك أخطاء جسيمة، ولقد كان بعد سنة ١٧٨٢ أن تعرف هين على مساعد ممتاز وهو رييس reuss ونجحا معاً في خلق رابط قوي بين ترتيب الكتب على الرفوف والفهرس والتأكد من أن كل كتاب جديد قد أدخل في سجل الرصيد وفهرس المؤلف وفهرس الموضوع .

وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت شهرة مكتبة جوتنجن على كل لسان . ولقد كان من السهل عليها أن تجمع بين جوقة كاملة من العظماء من بينهم أذكى العقول من أمثال هيردر herder جوته Goethe فون همبولدت vonhumboldt مما جعل أساقل الناس وحسادهم يصرون على أن أساتذة جوتنجن العظام إنما يدينون بنجاحهم وتفوقهم لمكتبة الجامعة فقط .